



قرأت منذ سنوات كتاباً بعنوان The G.O.D. Experiments للمؤلف Gary E. Schwartz قال فيه: "إنني أحب كل المخلوقات وكل الحيوانات بما فيها التماسيح والثعابين، ولكنني أترك مسافة بيني وبين الحيوانات المفترسة، لأنني إذا اقتربت منها ستؤذني".

الإنسانية لا تأتي من خلال معتقد معين، بل هي فطرة سليمة في الإنسان لا يخرج عنها إلا من صدأ قلبه، فالأدريان السماوية هي الأداة التي تجلّى القلوب من صدأها لمن أراد أن يستخدم هذه الأداة بإخلاص ليتخلص من أمراض قلبه، فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

هذه المقالة تعبر عن شريحة معينة في المجتمع مريضة بحب الذات واستعظام النفس، تبتغيه من خلال احتقار الآخرين، وخصوصاً المؤسأء منهم.

ومقابلاً يوجد شريحة أخرى مناقضة تماماً، تضحي بنفسها ومالها من أجل مساعدة المساكين المؤسأء عسى الله أن يقيهم يوماً عبوساً قمطرياً كان شره مستطيراً.

طبعاً ليس كل الناس سواسية، فهناك شريحة من الأطباء تحمل بين طيات صدرها قلب الإنسان، لا تنتظر أن يطرق المؤسأء باب عيادتها، لتكتسب بهم رضاء الله. بل تترك عملها وأطفالها وببلادها وتبذل مالها وتخاطر بحياتها لتساعد المؤسأء المنكوبين سواء في خيم اللاجئين أو من تحت أنقاض منازلهم داخل حدود بلد منكوب من بلاد الله الواسعة. **إنهم أطباء في قلوبهم رحمة بلا حدود.** سمعت بأحد هم في أحد الولايات يفتح باب عيادته يوماً واحداً في كل أسبوع مجاناً لأي سائل أو محروم، وعندما قرعت طبول المستغيثين في بلده المنكوب، كان من أول النازحين إليها وجر معه ثلاثة من المخلصين لا يريدون جزاءً ولا شكوراً. فلهم أهدي هذه المقالة، فهم خير مثال للإنسانية في وقت يحتاج فيه الإنسان أخاه الإنسان.

الله أجرهم عنا وعن المنكوبين البائسين خير الجزاء، واحفظهم حتى يرجعوا لأهلهم وأولادهم سالمين آمنين. من الصعب معرفة الناس على حقيقتهم إذا كانت ظروف الحياة مستمرة معك على مستوى معين. ولكنك يمكن أن تستشف خبايا ضمائرهم وخفايا قلوبهم وما تكن أنفسهم عندما تعلو بك الحياة إلى ذروة الجبال ثم تهبط بك

إلى قعر الوديان كموجات ضوئية متعاقبة، فتبصر بما غفي عنك، فبصرك اليوم حديد.

قد تصعق من شدة ما تراه، هل هو الحقيقة أم مرض أصاب العيون؟

فلا أثر للصديق ولا مودة من الأخ والقريب، فلا رحْمٌ ولا رَحْمَةً ولا تراحمٌ. تتجانفي وجههم وتعوج ألسنتهم. إلا من رحم ربك، وهم قليل من قليل. فمن وقع في الحفر سقط عليه الحجر، ومن تربع فوق الجبال التمس وده الرجال.

كم مُجَدَّت رؤساء وملوك وأمراء ولكن إذا ذهب مُلْكُهُم ذهبوا. إنها تجربة تجعلك تستهزئ ببني الإنسان. فرغم مآسي العلو والهبوط ستجد أن الله علمك الكثير، فهو يلأء فيه علم.

رحم الله الشافعي حين قال:

ولا خير في ود امرئٍ متلونٍ *** إذا الريح مالت مال حيث تميل
ما أكثر الإخوان حين تعدهم *** لكنهم في النائبات قليل

سأذكر قصة سمعتها، تبين حب قهر المؤسأء عند أصحاب النفوس المريضة. فأصحاب تلك النفوس العفنة تشعر بكيانها وأهميتها عندما تَذَلُّ قاصدتها وتهين طالبها.

لقد استخف فرعون بقومه وهو ليس من صنف المؤمنين، أما بعض المؤمنين المصلين الصائمين فلقد استخفوا بالمؤسأء وكل من طرق بابهم من المساكين {لَا يَؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ}. {فَوَلِّهِ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةً خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ عَنِّي حَلِيمٌ} البقرة: 263.

قبل أن أذكر القصة، سأذكر تجربة جرت على القردة قرأتها في كتاب "ظل الأسلاف المنسي" Shadows of Forgotten Ancestors للكاتب كارل سakan Carl Sagan وآن درويان Ann Druyan (سأذكرها بالتفصيل في مقالة منفصلة).

التجربة جرت على أحد أنواع القردة الأكثر انتشارا، اسمه قرد المكاك، يعيش ما بين اليابان وآسيا. وضعت مجموعة من القردة في غرفة منفردة، يأتيمهم الطعام بطريقة غريبة وذلك عن طريق حبل يشده القردة داخل الغرفة.

وكلما شد أحد القردة الحبل من أجل الطعام، فإنه سيسبب صدمة كهربائية لقرد آخر لا يعرفونه موجود في غرفة مقابلة، يرونها من حيث لا يراهم من خلال مرآة ذات اتجاه واحد. وإذا لم يشد القردة الحبل فلا طعام، وستحصيهم المجاعة.

فهذا خيار شائك، إما أن يحصلوا على الطعام ويسببو ألمًا للقرد في الغرفة المجاورة، أو أن يمتنعوا عن الطعام ويختاروا الموت، خيار صعب.

فبعد أن تعلم القردة أن شد الحبل للحصول على الطعام سيسبب ألمًا للقرد الموجود في الغرفة المقابلة، تجنب أكثرهم شد الحبل وآثروا المجاعة على عذاب غيرهم.

وفي إحدى التجارب، آثر أحد القردة أن يبقى بدون طعام، واختار المجاعة حتى الموت حتى لا يسبب ألمًا لأخيه القرد، وبعد أسبوعين متواصلين من إضرابه على الطعام اضطر الباحثون لإيقاف التجربة خشية أن يموت القرد.

التجربة أثبتت أن القردة عندها المقدرة لأن تتخذ قراراً أخلاقياً وتلتزم به. ولنقارن بالمقابل مقدرة الإنسان على اتخاذ القرار الأخلاقي والالتزام به، وهل الإنسان الصائم المصلي سيلتزم بالقرار الأخلاقي الذي تعلم من خلال دينه. فالواقع الذي نسمعها عن الإنسان، هي تجارب واقعية تعبر عن سلوكه.

وإليكم القصة: حدثني صديقي بقصة صادق لها صدري، عن طبيب قاسي ومرهض يقاسي.

إنها قصة مريض مسكين يبحث عن دواء لداء حَيْرَ الأطباء. يوماً طرق ذلك المسكين باب طبيب مؤمن، لعل الله يجعل على يديه الشفاء. إنه مرض السرطان الذي تنهار له الأبدان، وتشحّب له الوجوه.

وقف البائس يوماً هو ورفيقه على باب عيادة طبيب مؤمن عُرف عنه الصلاة والصيام. راجياً ممن يوحد الله الدواء فيما ابتلاه الله من داء.

وقف مكسور القلب على باب عيادة ذلك الطبيب عسى أن يبشره بالشفاء. ما إن رأى الطبيب ذلك المريض حتى نفحت في نفسه قريحة الكبراء، وعلت على وجهه أسارير الاستعلاء.

نسى فضل الله عليه، فوقع في الفتنة لأنه من صنف الجهلاء. فقال للمسكين إذا لم يكن عندك مال، فلماذا تطلب الدواء من العريان وتتنسى الأمريكان؟

وهل تظن أن عيادي هي جمعية خيرية لمن ليس عنده مال؟

لقد نسي ذلك الطبيب أن يشكر الله على ما فضله به على كثير من عباده، فامتحنه الله بمرض مسكين، ففتن عندما أخذته العزة بالنفس وأصابته نفحة الكبراء.

استعلى على قاصده فمزق أحشائه. عجز لسان المسكين أن يعبر عن لوعة قلبه، فانحدرت عبرات الأسى على تجاعيد وجنتيه من نبع جفت قطراته من كثربكاء. وانفجرت من أحشاء ذلك البائس آهات قهر الرجال.

ما أطيب الموت أمام ذل الرجال. طرق باب الطبيب المسلم من أجل الدواء، فخرج من عنده وقد تضاعف به الداء. دخل لعنه وهو يعارض شبح الموت، فخرج من عنده وهو يتمنى الموت. اللهم إني أعوذ بك من قهر الأنذال للرجال، اللهم إني أعوذ بك من ظلم الإنسان للإنسان.

اللهم لا تجعل حاجتي إلا إليك يا وَدُود، وإن قدرت علي غير ذلك فخذني إليك أخذ رحيم يا رَوْف. ما أرحم الموت أمام الحاجة لأنذال. إن سائل البخيل محروم، وسائل اللئيم مذلول.

لقد قال أحد الحكماء: "ونقت المرارات كلها فلم أجد أحداً من الحاجة للناس". لقد استعاد الرسول - صلى الله عليه وسلم - من قهر الرجال، ونحن في زمان نستعيذ بالله فيه من قهر الأنذال للرجال.

إنهم أشباه رجال وليسوا برجال، فالرجال تعرف عند المحن والشدائد وإظهار الشهامة مع أخيه الإنسان.

فما بالك بإنسان يهوي إلى قبره فيم يده فلا يجد إلا لئيم يشبه الإنسان. ألم أن اللؤم هي صفة فطر عليها الإنسان؟ لو مد يده إلى قرد لأعانه ولقال له دعك من لسان الإنسان. القرد لا ينطق ولكن مازال يحتفظ بقيم انتحرت عند الإنسان. أما زلت تُعَابُ من أن يكون القرد قريبك أيها الإنسان؟

ألا تذكر تجربة القرد الذي أضرب عن الطعام من أجل أن لا يقع جاره القرد في وقع الآلام.

لو نطق القرد لقال إني بريء مما يفعل الإنسان. الويل لذلك الطبيب من يوم تشخص فيه الأبصار وهو يطرق باب العزيز الجبار، يوم يأته الجواب: "يا هذا ليس لك عندنا اليوم جمعية خيرية، هل تذكر عبادنا فلان الذي أتاك طالباً الدواء، فخرج من عندك مكسور الفؤاد، اليوم توفي كل نفس ما عملت، فكما تدين تدان". إنه يوم حق آت، فيه يرى الإنسان ما كسبته يداه

{وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} البقرة:195

وفي الحديث القدسي يقول الله عز وجل يوم القيمة: {يا ابن آدم مرضت فلم تدعني قال يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين قال أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تتعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده. يا ابن آدم استطعمنك فلم تطعني، قال يا رب وكيف أطعُمك وأنت رب العالمين، قال أما علمت أنه استطعمنك عبدي فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمنه لوجدت ذلك عندي. يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني، قال يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين، قال استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي}.

لو كان قاصد ذلك الطبيب من المشهورين، أو من الأغنياء المعروفين، لقفز من كرسيه مهلاً بالتحية والإجلال، ولرفض المال والتمس التقرب منه وهو يقول: "لا يا أبو فلان، لقد نورت المكان، فإننا نريد منك خدمة يا رجال، فإنك أخ غالى وصديق

عزيز، ثم مشي معه إلى الباب مودعاً، وكلمه في اليوم التالي على الهاتف ليطمئن على صحته وأحواله.

لقد انتحر ضمير ذلك الطبيب بحب الدنيا والدينار، فانحنى تحيه وإجلالاً لصاحب الشهرة ومالك الدولار. رحم الله حسن

البصري حين قال: "لكل أمة صنم يعبدونه، وصنم هذه الأمة الدرهم والدينار".

ويصف عروة بن الورد كيف تلتقي الناس أصحاب الغنى والثروة:

وَتُلْفِي ذَا الْغَنِيِّ وَلِهِ جَلَالٌ *** يَكَادُ فَؤَادُ صَاحِبِهِ يَطِيرُ

إنها عيشة البؤساء، لا يعرف طعمها إلا من دخل بيوقتها وذاق مرارتها. ولا يشعر بذلك إلا ذو إحساس عازفه حاجته إلى كلاب الدنيا وطلابها، يتمنى لو تخفف به الأرض حتى لا يلوع من لساعات أحاسيسه.

هل ينتحر ويخلد في النار؟ أم يصبر على آلامه وعزاؤه الرحيم الغفار؟

إنه خيار ذو حدين، سيقطع أحشاءه بين جوانحه كيما استدار. الأول أرحم من الثاني في الدنيا، ولكن المانع هو الإيمان بالغيب ل يوم مشهود تخشم فيه الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا.

إنه يوم العزيز الجبار الذي تشخص فيه الأبصار. اللهم كما صبرتُ البوسائِ على ذل الدنيا فارحمنهم في ذلك اليوم يا رحيم، فانك القائل وقولك الحق: إنما يوفى الصابرون أحرهم بغير حساب.

وأظن أن ابن الأحنه قد ذاق طعم تلك المرارة فتأجج اللهيب بين نبضات جوانحه فصرخ متائلاً معبراً لما في داخله فقال: يمشي الفقر وكل شيء ضده والناس تغلق دونه أبوابها وتراء مبغوضاً وليس بمذنب ويرى العداوة لا يرى أسبابها حتى الكلاب إذا رأت ذا ثروة خضعت لدحه وحركت أذنابها وإذا رأت يوماً فقيراً عابراً نجحت عليه وكشرت أننيابها اقترب مرافق ذلك المسكين إلى الطبيب مُحرقاً، بعد أن كان من أصدقائه، قائلاً له باستخفاف: عالج ذلك البائس المسكين وأنا كفيل لما تريده من ورق الدولار {وَبُطْعَمُونَ الْطَّعَامَ عَلَى حُبَّةِ مِسْكِينٍۚ وَيَتَمِّمُۚ وَأَسِيرًا} 8 إنما نطعمكم لوجه الله لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءًۚ وَلَا شُكُورًا} 9 إننا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَيْوَسًا قَمْطَرِيرًا} 10 فَوَقَّهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَمِ نَصْرَةًۚ وَسُرُورًا} 11 {سورة الإنسان.

وفي الحديث: {من نَفَسَ عن مؤمن من كربة من كرب الدنيا نَفَسَ الله عنه كربة من كرب يوم القيمة، ومن يسر عن معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد مadam العبد في عون أخيه} رواه مسلم.

لقد انتقل ذلك المريض إلى رحمة ربه بعد أسبوعين من تلك الحادثة، وارتاح في ظلمات قبره من قهر الدنيا وذل الإنسان. فيه سكنت جوارحه، وحمد لهيب أحشائه. فلا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا آهات تدوى، ولا دموع تسيل، ولا ذل يُكروع على مضاضة. لقد وقف التاريخ عنده فلا ذكريات تؤلم. إنها رحمة القبور، تنسي ما في الصدور، فالدنيا سجن المؤمن وعذابه. لقد غادر الدنيا ومارسها وترك ذلك الطيب يشخر على فراش وثيره لا يؤرقه إحساس ولا يؤنبه ضمير، بل على قلوب أقفالها.

وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهر، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله. وإن من قلوب الإنسان ما يقضى على المؤسأة. فمن اتّحر عنده الضمير، فقد إنسانيته ونام كالطفل الصغير. لا نامت عين من خرجت من قلبه الرحمة لعباد الله، وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: {لا يرحم الله من لا يرحم الناس}. لقد دخل رجل الجنة في كلب أسفاه شربة ماء، ودخلت امرأة النار في قطة حبسها ولم تطعمها رغم صلاتها وصيامها. هذا جزاء من عامل الحيوان، فما بالك بجزاء من يقسوا على الإنسان. لقد قيل إن ألد عدو للإنسان هو الإنسان.

المصادر: